

شاؤول تشرنخوفسكي : بين التمرد والاستسلام

د. عبد الوهاب م. المسيري

تتضح كل تناقضات الفكر الصهيوني في أشعار وكتابات الشاعر شاؤول تشرنخوفسكي الذي ولد في روسيا في ٢٠ أغسطس ١٨٧٥ ، وتعلم العبرية والروسية في طفولته ، وقرأ عددا من الكتب الأدبية العالمية، فمن بين قراءاته نجد قصص جول فيرن واسكندر دumas والألياذة والأوديسة وأشعار شللي ، جنبا إلى جنب مع التلمود والكتب اليهودية القديمة . ودرس تشرنخوفسكي الطب في هايدلبرج في ألمانيا ، حيث تزوج من سيدة روسية مسيحية من أصل أرستقراطي ، تقيّة ورعة متمسكة بأهداب دينها وتعاليمه . وبعد ذلك رحل تشرنخوفسكي إلى سويسرا حيث مارس مهنته ، ومنها هاجر عام ١٩٣١ إلى فلسطين ، واستقر فيها حتى حانت منيته عام ١٩٤٣ .

تشرنخوفسكي العلماني المتهم

تنسجم قراءات تشرنخوفسكي ، بل وحياته ، بضرب من الأزواجية العميقة التي تعبر عن نفسها في أدبه ، سواء من ناحية الشكل أم المضمون ، فأدبه أدب يهودي متمرد على اليهودية في الوقت ذاته . فعلى سبيل المثال نجده ينصرف عن الأشكال الأدبية العبرية ليقلد الأشكال الأدبية الغربية من سوناتا إلى ملحمة إلى خمريات إنكارونية أفريقية ، بل انه ترجم كثيرا من الأشعار الغربية إلى العبرية ، وهو مشهور كمترجم شهرة كشاعر . هذا من ناحية الشكل ، أما من ناحية المضمون فتمرده يظهر بشكل أجلى وأوضح ، فتشرنخوفسكي من أتباع الفيلسوف الصهيوني برديشفسكي الذي نادى بتخليص اليهودية من روحانيتها المتطرفة ، ومن تركيزها الزائد على البؤس والشقاء والاستشهاد ، كما أنه نادى بإعلاء قيم أخلاقية نيتشوية ، كان يعدها البعض غير يهودية ، مثل الفرح والقوة الجسدية والعدوانية ، وقد حاول تشرنخوفسكي أن يطرح جانبا القيم اليهودية التقليدية التي تثقل كاهله . ففي قصيدة « اني أعتقد » ، على سبيل المثال ، يتغنّى ببعث الإنسان اليهودي الجديد ، وبالشعب اليهودي الذي لا ينوء تحت نير الغيبيات الدينية .

شعبي هو الآخر سيزدهر ، وغوق الأرض سيظهر نشء جديد .

سيلقى بالسلاسل التي تفل بيده ، ويمرر النور أمام عينيه .

شعب يعيش ويحب ويعمل ويفعل ، يقينا انهم احياء على الأرض .

وليس في العالم الآخر — لا يعيشون على الأمل في السماء ولا يقرون عينا بالعقيدة الخاوية .

ويلقي تشرنخوفسكي بنفسه في أحضان الطبيعة لينسى يهوديته . والهرب إلى الطبيعة له دلالة خاصة بالنسبة لليهود، إذ إن الديانة اليهودية من أكثر الديانات معاداة للطبيعة، فثورة الوجدان اليهودي عبر التاريخ كانت دائما وأبدا القبيلة والجماعة ، وإذا كانت الشعوب الوثنية تعبد العناصر الطبيعية مثل الشمس والقمر والأشجار ، فقد كان على اليهود أن يؤكدوا استقلالهم عن طريق ابتعادهم كلية عن أي عبادة لتلك العناصر ، وبهذا